مجلة شروح
المجلد: 03/ العدد 01.... 2023. ص 178- 191

الفهم والتأويل عند هانس جورج غادامير
قراءة في المرجعيات والآليات

د/ صباغ إيمان
أستاذة محاضرة -أ-
بجامعة الجزائر02
Sabbagh.imen@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2023/11/04	تاريخ القبول:2023/11/22	تاريخ النشر:2023/12/30

الملخص:

تسعى هذه المداخلة إلى مناقشة موضوع يتعلّق بالفهم والتأويل عند هانس جورج غادامير للكشف عن مجموعة من الأدوات الإجرائية المنهجية التي حدّدها "غادامير" في التعامل مع النص الإبداعي، من خلال إعطاء المتلقي لهذا النص بُعداً تأويلياً يستخلص أبعاد النص المستقبلية وفق رؤية تأويلية تتناسب والطبيعة التاريخية لعمليات الفهم الأدبي.

اكتست آليات التأويل مع "غادامير" طابعاً فلسفياً أنطولوجياً وجهّه إلى محاولة تفسير شروط إمكانات الفهم بصورة عامة ذلك أنّ القضية المحورية في التأويل هي قضية الفهم، كيف يتحقق؟ وكيف يكون؟ وكيف أنه سمة من سمات الإنسان الجوهرية بوصفه باحثاً عن المعنى وهي شروط وضعت مفهومي "المنهج" و"الموضوعية" موضع السؤال. يسعى جادامير إلى التأكيد على إجراءين جوهريين: ضرورة تخليص عملية الفهم من الطابع النفسي الذي وسمتها به رومانطيقية ديلتاي وشلايرماخر، وبالتالي ضرورة فصل النص عن ذهنية المؤلف وروح العصر الذي ينتمي إليه. ثم ضرورة تحويل الاهتمام إلى عملية الفهم ذاتها في حيثياتها الخفية وفي بعدها التاريخي.

الكلمات المفتاحية: الفهم، البعد التاريخي، التأويل، النص ، القارئ.

Abstract:

This intervention seeks to discuss a topic related to understanding and interpretation according to Hans-Georg Gadamer to reveal a set of methodological procedural tools that Gadamer identified in dealing with the creative text, by giving the recipient of this text an interpretive dimension that extracts the future dimensions of the text according to an interpretive vision commensurate with the historical nature of the processes Literary understanding.

The mechanisms of interpretation with "Gadamir" acquired a philosophical and ontological nature that directed him to try to explain the conditions of the possibilities of understanding in general, because the central issue in interpretation is the issue of understanding, how is it achieved? And how is it? And how it is one of the essential characteristics of man as a searcher for meaning, which are conditions that put the concepts of "method" and "objectivity" into question. Gadamer seeks to emphasize two fundamental measures: the need to rid the understanding process of the psychological character that characterized it with the romanticism of Dilthey and Schleiermacher, and thus the need to separate the text from the mentality of the author and the spirit of the age to which it belongs. Then the need to shift attention to the process of understanding itself in its hidden merits and in its historical dimension.

Keywords: comprehension, historical dimension, interpretation, text, reading, reader.

تقديم:

إذا كان التأويل، مفهوماً، قديم قدم النصوص نفسها دينية أو لغوية، وقدم بدء محاولات تفسيرها وشرحها من خلال مجموعة من القواعد والمعايير التي يتبعها المفسر، فإن الهرمنيوطيقا Hermeneutics هي نظرية تأويل النصوص، أو هي العلم الذي يبحث في آليات الفهم. وقد بدأت في الفكر الغربي الحديث مع القرن السابع عشر 1654م عندما انفصلت عن مجال فهم النصوص الدينية لتصبح علما مستقلا بذاته يناقش عمليات الفهم وآليات التأويل بيد أن الهرمنوطيقا، منهجا ومفهوما وفلسفة، تطور بعد ذلك، حيث امتدت تطبيقاتها الى دوائر أكثر اتساعا شملت حقول العلوم الانسانية كالتاريخ، والفلسفة والانثروبولوجي، والنقد الأدبي وغيرها.

تسعى هذه المداخلة إلى مناقشة موضوع يتعلّق بالفهم والتأويل عند هانس جورج غادامير للكشف عن مجموعة من الأدوات الإجرائية المنهجية التي حدّدها "غادامير" في التعامل مع النص الإبداعي، من خلال إعطاء المتلقي لهذا النص بُعداً تأويلياً يستخلص أبعاد النص المستقبلية وفق رؤية تأويلية تتناسب والطبيعة التاريخية لعمليات الفهم الأدبي.

1. الفهم والتأويل في الممارسة الهرمنيوطيقية:

يمثّل "**شلاير ماخر**"* الهرمينوطيقا في دورها الكلاسيكي، فهو المفكر الذي يعود إليه الفضل في نقل مصطلح "الهرمينوطيقا" من مجال الدراسات اللاهوتية ليصبح دالاً على علم أو فنّ مهمّته وضع الشروط والقوانين التي على ضوئها تُفهم النصوص، والوصول من ثمّ إلى إقرار أسس وضوابط لعملية

التفسير والتأويل. انطلق "شلاير ماخر" في مشروعه بتقديم تصوّر جديد للهرمينوطيقا يتأسّس على مقولة **الفهم** "la compréhension" من خلال **تعريفه للهرمينوطيقا** بأنها: " **فن تجنّب سوء الفهم"1.**

لقد وجد "شلاير ماخر" في ظاهرة **سوء الفهم** **la** mécompréhension الحدث الذي تتأسّس عليه الهرمينوطيقا"2. ذلك أنّ سوء خطاب ما هو الذي يولّد الحاجة إلى الفهم بالحرص على توفير شروطه ومبادئه.

إنّ هدف الفهم عند "شلاير ماخر" هو إعادة بناء المقاصد الأصلية للمؤلف على ضوء حياته الفكرية وحلّ المؤول محلّه، فالممارسة التأويلية تأخذ عنده طابع إعادة بناء المعنى. إذ يقول: "**الفهم يعني فصاعداً إعادة بناء المعنى لغوياً ونفسياً وفهم مقاصد المؤلف**"3.

إذن غدت عملية التأويل لديه رديف إعادة البناء "reconstruction" وإعادة البناء هذه تتّخذ وجهين أو طابعين متكاملين من التأويل:

- **التأويل النحوي l'interprétation grammaticale**، ويهدف إلى فهم معنى خطاب معيّن انطلاقا من اللغة2، وذلك بمعرفة عناصرها اللغوية ونوعية العلاقات التي تنتظمها أي كل ما يتّصل بخصائصها وبناها وأنظمتها المعجمية والنحوية.
- **التأويل النفسي l'interprétation psychologique**، ويهدف إلى فهم الجزئي من الخطاب باعتباره فكراً فردياً وذاتياً، فمدار التأويل النفسي إذن تلك الخصوصية أو الكيفية التي ينبثق بها الفكر من داخل الإطار الكليّ الذي يميّز حياة المؤلف النفسية والتاريخية. وهذه الخصوصية هي التي يصطلح عليها بالأسلوب4.

إنّ الأساس الذي يقوم عليه الفهم عند "شلاير ماخر" هو تداخل **المستوى اللغوي والنفسي**، وما ينتج كذلك ما يسميّه **بالدائرة الهرمينوطيقية**cercle herméneutique والتي تعني عنده:" أنّ فهم الجملة يتطلّب فهم السيّاق الكلي لها، أي فهم النص في تفاصيله يتطلّب فهم النص في كليته وفهم بيبليوغرافيا المؤلف انطلاقاً من سياق ظروفه التاريخية والسيكولوجية بصفة عامة"5

إنّ نظرية "شلايرماخر" هي محاولة لوضع منهج لفهم النصوص، وقصد المؤلف من خلال معرفة الجانب الموضوعي للغة والذاتي النفسي أو ضرورة التعرّف على ظروف النص لتأثيرها في المؤلف أو أن يعيش المفسّر تجربة المؤلف الحياتية بالإضافة إلى تحديده للدائرة الهرمينوطيقية.

بالرغم من ذلك وجّهت إليه انتقادات فيما يخص تناسيه البعد التاريخي في الفهم. لذا نلمح "**غادامير**" منتقداً "**شلاير ماخر**" بأن فلسفته تسعى إلى العالمية والكونية لكنها بعيدة عن التاريخ وهذا ليس غريبا إذا نظرنا إلى الاتجاه الذي يمثّله هذا الأخير باعتباره تيولوجي المنبع".

بعد ذلك جاءت محاولة "**فيلهلم ديلثي**" وانطلق من حيث انتهى "شلاير ماخر" في البحث عن الفهم الصحيح، فعمِل على إرجاع الهرمينوطيقا بصورة كليّة إلى الفلسفة، واعتبر الفهم أساس العلوم الإنسانية التي تختلف عن العلوم الطبيعية التي يمثل التغيير أساسًا لها. وذلك بفضل التحوّل البارز في تاريخ الهرمينوطيقا في نهاية القرن الـ19 بحيث" عرفت تحوّلاً صارت بمقتضاه منهجاً للعلوم الإنسانية باعتبارها علوماً تأويلية تتأسّس على الملاحظة والاستنباط وتختلف تبعاً لذلك عن العلوم الصحيحة"

كما وجد "ديلتاي" في الجانب النفسي السّمة المميّزة لعملية الفهم لديه، فهو يعرّف الفهم بقوله: " **إنّنا نسمي فهماً المسار الذي ندرك من خلاله ما هو باطني استناداً إلى علامات خارجية**". ويزيد هذا التعريف توضيحاً وتحديداً، فيقول:" نعني بالفهم العملية التي بواسطتها نعرف شيئاً نفسياً ما عبر العلامات المحسوسة التي تكشف عنه"6.

فالموضوع الرئيسي لعملية الفهم إذن هو الكشف عن الحياة النفسية أو التجربة النفسية باعتبارها هي التي تؤدي إلى إنتاج الكتابة وإنتاج التعبير. كما يؤطر عمل "ديلتاي" أيضاً، مفهوماً آخر هو مفهوم **الدائرة الهرمينوطيقية** « Le cercle herméneutique التي تتحقّق باعتبارها حلقة تنطلق من الفهم الشمولي والكلّي لتصل إلى فهم الأجزاء واستيعابها "أي أنّنا كمؤولين لن نتمكن من فهم المعنى الذي يقصده المؤلف إلاّ في إطار معرفتنا بالعمل المراد تأويليه باعتباره كلاّ، وهذا الكلّ لا يمكن فهمه إلاّ بعد فهم أجزائه الصغرى المكوّنة له"7. وبالتالي لا يمكن تجاوز لا الكل ولا الأجزاء في فهم معنى النص لأنّ العلاقة بين الطرفين علاقة عضوية. لذا فقد توصّل "**ديلتاي**" إلى أن فهم العمل الأدبي يقوم على التفاعل الحيوي بين أفق النص –باعتباره خلاصة معبّرة عن تجربة الحياة- وافق القارئ المفسّر بحيث ينفتح فيه أفق القارئ ويتّسع لإمكانات من التجربة لم يتسنّ له من قبل.

لقد استطاع كل من "**شلاير ماخر**" و"**ديلتاي**" أن يحوّلا موضوع الهرمينوطيقا من مجرد البحث عن المعنى في النص إلى إثارة قضية الفهم وتحديد مناهجه وشروطه، وبهذا التحوّل اعتبر بول ريكور: "أن **الهرمينوطيقا أصبحت مع شلاير ماخر وديلتاي مشكلاً فلسفياً"8.**

2. **مرجعيات الفهم والتأويل عند هانس جورج غادامير:**

إنّ الحديث عن "**هانس جورج جادامير"9** (H.G.GADAMER) يستدعي وجوبا ذكر "مارتن هيدجر"[10] (M. HEIDEGGER) باعتباره مثّل منعطفاً حاسماً في تاريخ الفلسفة عموماً، وكان لمواقفه وأفكاره حول فلسفة الوجود خاصة صداها وأثرها في "جادامير" وفي تأسيس نظريته الهرمينوطيقية الفلسفية كما تبلورت أصولها ومبادؤها في كتابه "الحقيقة والمنهج" الذي بفضله عُدّ "جادامير" مؤسس الهرمينوطيقا الفلسفية المعاصرة.

لقد شكّلت آراء "**هيدجر**" الفلسفية ولاسيما في كتابه "**الوجود والزمان**" انقلاباً فينومينولوجياً بمقتضاه تحوّلت الهرمينوطيقا من "**ابستيمولوجيا للتأويل**" (مع شلاير ماخر وديلتاي خاصة) إلى **أنطولوجيا للفهم**، فوقع استبدال سؤال المنهج سبيلاً إلى المعرفة بسؤال الكينونة صيغة في الوجود لهذا الكائن الذي لا يكون إلاّ بالفهم. "**فالفهم في هذا السياق الفينومينولوجي والأنطولوجي لم يعد نمطاً للمعرفة "un mode de connaissance" بل أضحى نمطاً للوجود "un mode d'être'** "[11] بمعنى لم يعد الفهم أو التأويل مسألة تخصّ العلوم فقط، وإنّما ظاهرة تنغرس في صميم التجربة الكليّة التي يعيشها الإنسان.

إنّ قيمة فلسفة "هيدجر" في نظر "غادامير" تكمن أساساً في تلك الأهمية التي أسندها لمفهوم "التاريخية historicité" ولمفهوم الوضع أو المقام situation، مقام الإنسان في هذا الوجود باعتباره كائناً "قذف به في العالم". فضلاً عن ذلك التصوّر الفينومينولوجي للفهم الذي يحدّده "**هيدجر**" في كتابه "الوجود والزمان" بالصيغة التالية: "**إنّ السؤال الحقيقي ليس أن نعرف كيف أن يفهم الوجود، وإنّما كيف يكون الفهم هو الوجود**"[12]. فكل فهم يدور وفق هذا المنظور حول فهم الذات بوصفه (الفهم) مشروعاً مفتوحاً في هذا العالم.

لقد بنى "**هيدجر**" الهرمينوطيقا على أساس فلسفي وجودي بشكل خاص، معتبراً بأنّ حقيقة الوجود تتجاوز الوعي الذاتي وتعلو عليه، لأن وعي الإنسان الذاتي تاريخي يحدّه الزمان والمكان، أما حقيقة الوجود فإنّها تسمو على الزمان والمكان لتصبح (أي الوعي) عملية الفهم مستمرة تقوم على أساس ظاهري **phénoménologie**[13]. اجتهد "هيدجر" لتوضيح هذه الفكرة فألّف كتابه الوجود والزمان" " being and time" سنة 1927 ليبرهن على أن المنهج الظاهري هو المنهج الأمثل الذي ينبغي أن نتعامل مع ظاهرة الفهم. "**فالتأويل بحث لا يتوقف عن المعنى الضائع أبداً بحيث يكون دوماً مجالاً للبدء من جديد أي لاستئناف القول إذن لإعادة التأويل**"[14].

ويتفق "**غادامير**" و"**هيدجر**" في فكرة فهم النص، فكل منهما يرى أن فهم النص الأدبي لا يعني فهم تجربة المؤلف بل فهم تجربة الوجود التي تفصح عن نفسها من خلال الدوال النصّية[15]. ونشير أيضاً، إلى أن "**غادامير**" وإن تأثّر ببعض مبادئ فلسفة "هيدجر" واتخذ من بعض تصوّراته وآرائه إطاراً مرجعياً لنظريته الهرمينوطيقية، فإنّه اختلف معه في تجاوزه الحاسم للطابع الابستيمولوجي الذي ميّز الهرمينوطيقية الحديثة. لذلك حاول "غادامير" أن يعقد الوصل من جديد مع العلوم الإنسانية وأن يعمّق النظر في قضاياها الابستيمولوجية من زاوية أنطولوجية. يرى "محمد شوقي الزين" أنّ "**عودة غادامير إلى العلوم الإنسانية هي مساءلة نقدية لأسس ومبادئ هذه العلوم بالكشف عن تناهيها الخاص**"[16]. فالمتلقي عندما يخوض لعبة النص لا يبدأ من فراغ، بل يستعين بأفكاره المسبقة ويدخلها في النص ليكتشف كل ما يحيط به من وقائع وهنا يعيد المتلقي بناء النص ومعناه وهذا ما دافع عنه جادامير عندما اهتمّ بمسألة الفهم الذاتي.

3. آليات الفهم والتأويل عند هانس جورج غادامير:

ينطلق "**جادامير**" في كتابه "**الحقيقة والمنهج**" من إقراره مفهوم الهرمينوطيقا كما تشكّلت في الأفق الفلسفي الهيدجري واعتمد بذلك المعنى الانطولوجي "**فالفهم ليس نمطاً لسلوك ذاتي من بين أنماط أخرى، وإنما هو نمط وجود الدزاين ذاته. بهذا المعنى جرى استعمال مفهوم الهرمينوطيقا في هذا الأثر فهو يعني المقولة الأساسية للوجود التي تشكله من حيث تناهيه وتاريخيته، وتحتضن تبعاً لذلك مجموع تجربته في العالم**"[17].

من هنا يوضّح "**غادامير**" طبيعة مشروعه الهرمينوطيقي وهدفه، فهو يسعى إلى "**بيان العنصر الجامع المشترك بين كل أنماط الفهم وإبراز أنّ الفهم لم يكن قط سلوكاً ذاتياً تجاه موضوع نفترض أنّه معطى، بل هو ينتمي إلى الوجود ماهو قابل الفهم**"[18].

يسعى غادامير " **إلى التأكيد على إجراءين جوهريين: ضرورة تخليص عملية الفهم من الطابع النفسي الذي وسمتها به رومانطيقية ديلتاي وشلايرماخر، وبالتالي ضرورة فصل النص عن ذهنية المؤلف وروح العصر الذي ينتمي إليه. ثم ضرورة تحويل الاهتمام إلى عملية الفهم ذاتها في حيثياتها الخفية وفي بعدها التاريخي**"[19].

بهذا التصوّر إذن، لم تعد الهرمينوطيقا خطاباً في مناهج الفهم "الموضوعي" وطرائقه مثلما كان الأمر مع هرمينوطيقا شلاير ماخر وديلتاي، التي كانت تبحث عن تشكيل جملة وقوانين للتأويل، وإنما

اكتسبت الهرمينوطيقا مع "**جادامير**" طابعاً فلسفياً أنطولوجياً وجهّه إلى محاولة تفسير شروط إمكانات الفهم بصورة عامة "ذلك أنّ القضية المحورية في الهرمينوطيقا **هي قضية الفهم، كيف يتحقق؟ وكيف يكون؟ وكيف أنه سمة من سمات الإنسان الجوهرية بوصفه باحثاً عن المعنى**"[20]. وهي شروط وضعت مفهومي "المنهج" و"الموضوعية" موضع السؤال.

لقد فصل "**غادامير**"إذن عملية الفهم عن المنهج، ووصلهما بمفهوم الحقيقة باعتبارها كشفاً وانكشافاً... ولما كان الفهم في نظره راسخاً في التاريخ بل إنّه جزء من التاريخ، من خلال المشروعية الممكنة للنصوص أو الوقائع المشابهة للنصوص.

ميّز "جادامير" بين نوعين من الفهم:

- فهم مضمون الحقيقة بمعنى ضبط حقيقة ذلك الشيء موضوع الفهم.
- فهم المقاصد، بمعنى معرفة الظروف والأسباب النفسية والتاريخية والذاتية التي أدّت إلى الإقرار بشي ما أو القيام بفعل ما.

غير أن الفهم في دلالته العميقة يتعلّق في نظر "**جادامير**" بالنوع الأول، **"بمعنى الفهم الأساسي للحقيقة. أما الفهم القصدي فنلجأ إليه لحظة نعجز عن فهم هذه الحقيقة"**[21].

وإذا ركزنا في آليات تأويل النص وفهمه عند غادامير فإننا نجده يدمج المستويات الثلاثة : المستوى الجمالي و المستوى اللغوي والمستوى التاريخي في الممارسة التأويلية نوجزها فيما يلي:

1. **المستوى اللغوي والجمالي:**

لقد حدّد غادامير في كل ممارسة تأويلية ثلاث مراحل هي: **الفهم، التفسير أو التأويل interprétation، والتطبيق .application**. وكل مرحلة من هذه المراحل تشكل جزء لا يتجزء من العملية التأويلية. فلا يمكن وجود أي تفسير دون فهم، إذ أننا نفسر أولا وأخيرا ما نكون قد فهمناه، ومن هنا يكون التشابك وثيقا بين التفسير والفهم، بل إنهما شيء واحد[22]. وبالاضافة الى ذلك ففي كل ممارسة تأويلية يوجد تطبيق ما فمن جهة هناك تطبيق لأفكارنا ومعاييرنا على النص، ومن جهة أخرى هناك تطبيق لمقولات النص ومعاييره الخاصة على معاييرنا نحن، أي هناك ترجمة للنص وتطبيق له في حياتنا العملية والواقعية. وهذا التطبيق يكون عن طريق اللغة . لهذا يصرّ غادامير في مواضع متعددة بأن "**مجمل خبرتنا بالعالم يمكن تفسيرها وفهمها على أنها حدث لغوي، لأن كل تفسير وفهم لما يكون**

قابلا للتعقل هو فهم وتفسير يكون له طابع اللغة"[23] وهكذا يتضح أن كل فعل تأويلي يحدث في صميم اللغة باعتبارها الوسيلة التي تسمح لوقائع الماضي بأن تواصل وجودها .

إنّ ربط "**غادامير**" عملية الفهم بمفهوم الحقيقة، أدى به إلى تصوّر مخصوص للمعنى في النص. عندما توجد عملية فهم نص ما، لا يمكن أن نسند المعنى لا إلى القارئ فمعنى النص هو لغة مشتركة بالمعنى الذي لا ينتسب فيه إلى أحد بصورة **خاصة**، وإنما يكون بالمقابل طريقة في النظر مشتركة إلى موضوع معيّن. **"فالحقيقة التي يكشف عنها الفهم هي مشاركة وليست امتلاكا، والمعنى نتاج التعامل مع الشيء نفسه والإقرار بحقيقة الشيء في نفسه ممّا يفتح الحوار كمشاركة مع الآخر"**[24].

وللدفاع عن وجهة نظره، استدعى "غادامير" **مفهوم اللعب le jeu**، وحاول أن يعقد تماثلاً بين فعل اللعب وفعل قراءة كتاب، فكلاهما يمارس سلطة على الأفراد الذين يلعبون أو الذين يمارسون تجربة ما، فيخضعون لذلك العالم الجديد الذي يدخلون فيه ويلتزمون بسننه وقواعده وضوابطه.

وتبعا لذلك تصبح اللعبة ذاتها هي المسيطرة بروحها وعالمها.وكذا العمل الفني يغدو مهيمنا بذاته حاملاً لقيمته باعتباره تمثيلاً رمزياً وإبداعياً للوجود، يقول "جادامير" في هذا السياق: **"إنّ تجربة الوجود الجمالية تنكشف لنا مثل لعب وتمثيل"**[25].

ولكي يُؤكد "**غادامير**" دور العمل الفنّي كوسيط ثابت يستشهد بظاهرة اللعب ويحلّلها. بمعنى عندما نكشف عن نوازعنا وأفكارنا السابقة ندخلها حيّز اللعب. وفي هذا الصدد يرى نصر حامد أبو زيد أن " **دور المبدع في العمل الفنّي كدور اللاعب في اللعب. إنه يبدأ بمحاولة تشكيل تجربته الوجودية، ولكن هذه التجربة تستقل –في تشكلِّها- عن ذاتية المبدع، لتتحول إلى وسيط له دينامياته وقوانينه الداخلية. هذا الوسيط الماثل في الوجود –الشكل الفني أو اللعبة- هو الذي يجعل عملية التلقي ممكنة.. إن العمل الفني –وكذلك اللعبة- يبدأ من المبدع (أو اللاعب) وينتهي إلى المتلقي (أو المتفرج) من خلال وسيط –هو الشكل-.. ولكنها تتغير من جيل إلى جيل ومن عصر إلى عصر طبقاً لتغيُّر أفق التلقي وتجارب المتلقين"**[26].

إنّ الوجود الإنساني حسب "**غادامير**" تاريخي ومعاصر في نفس الوقت، ولا يستطيع الإنسان تجاوز أفقه الراهن في فهم الظاهرة التاريخية، لا يستطيع أن يتحول إلى الماضي ليكون مشاركاً فيه ويفهمه فهماً موضوعيا. إن التقاليد التي انتقلت إلينا عبر الزمن هي المحيط الذي نعيش فيه، وهي التي تُشكِل وعينا الراهن. ومن ثم حين نبدأ من أفقنا الراهن لفهم الماضي لا نكون في غيبة عن التقاليد والتاريخ[27].

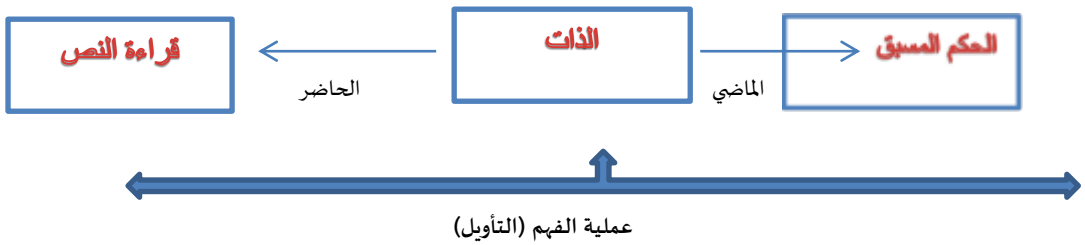
يقول "جادامير" أيضا في هذا السياق: "**إنّ الفن هو الذي يصنع من هذا الواقع حقيقته**"[28]. فالكتب التي تقرأ والمسرحيات التي تشاهد أو اللوحات التي ينظر إليها، تمارس على الفرد نفوذاً تصل به إلى حد يضع بمقتضاه حياته نفسها موضع سؤال.

فليس الأثر الفني في نظر "**غادامير**" مجرد متعة جمالية شكلية وإنّما شأنه شأن أي نشاط معرفي وإبداعي آخر يتضمن معنى وحقيقة، وأثناء تفاعل القارئ مع ذلك الأثر الفني وعالمه فإنّه يحقّق فهماً أعمق لذاته. إنّ الفن على خلاف هذه النظرة الجمالية الضيّقة والمغلقة، فعل إبداعي منخرط في التاريخ وكاشف عن الوجود ومرتبط بالناس... وهنا يكمن معناه وتتجلّى حقيقته. فالأثر الفنّي جامع وواصل بين المبدع وجمهوره، يتفاعلان مع الأثر وتتقاسمان معاً صناعة المعنى فيه.

2. المستوى التاريخي:

يمثل مفهوم "**الحكم المسبق**" préjugé إلى جانب مفهوم "**الحقيقة**" مفهوماً مفتاحاً في نظرية "غادامير" الهرمينوطيقية. فهو مفهوم يتصّل رأساً بعملية التكييف التاريخي le conditionnement لعملية الفهم. ويتنزل هذا المفهوم ضمن تصوّر "**جادامير**" لعلاقة الإنسان بالتاريخ يقول: إنّ الذي يحسن قراءة ما ينقل الينا من الماضي بواسطة الكتابة يحقّق الحضور الفعلي لذلك الماضي"[29].

ويشير "**غادامير**" إلى أن مفهوم الحكم المسبق يرتبط بالاكتشاف الهيدجري "**للبنية الما قبلية**"[30] /الاستباقية للفهم **structure d'anticipation de compréhension**، ويحاول "غادامير" توضيح ذلك بقوله: " إنّ أي شخص يريد فهم نص ما إنما له دائماً مشروع. فمنذ أن يرتسم معنى أول في النص، يستبق المؤول معنى للنص كله وبدوره فهذا المعنى الأول لا يرتسم إلاّ لأننا قرأنا سابقاً النص موجهين بانتظار معنى محدّد. ففي إطار إعداد هذا المشروع المسبق... يتم فهم ما يعرض للقراءة"[31]



الشكل1: يوضح عملية الفهم عند غادامير على مستوى الوعي التاريخي

لقد أولى **"غادامير"** أهمية خاصة **بجدلية السؤال والجواب** واعتبرها طابعاً أصيلاً في الظاهرة الهرمينوطيقية "**فكل نص نقل إلينا من الماضي أو التراث وكان تبعاً لذلك موضوع تأويل فإن ذلك يعني أنه يطرح على المؤول سؤالاً وفهم نص ما يعني فهم ذلك السؤال**.."[32]. بل إنّ الأمر يصل بجادامير إلى حد يعتبر فيه "أن العلاقة الجدلية بين السؤال والجواب هي التي تعطي للتجربة الهرمينوطيقية بعدها الحقيقي.

كما يرى "**غادامير**" أنّ"**عملية الفهم هي تلك العملية التي تهدف إلى نسف الحواجز بين الماضي والحاضر وهذا هو الفهم التاريخي الذي يعبر عنه جادامير وياوس من بعده واندماج الماضي والحاضر في عملية الفهم هو ما سماه جادامير بانصهار الآفاق**"[33].

فالفهم اذن هو انصهار بين أفق المؤول المرتبط بوضعيته التاريخية الراهنة، وهو أفق تلعب فيه الأحكام المسبقة دورها الفاعل في تحديد حركة الفهم والتأويل، وأفق الماضي الذي يحضر عبر النصوص التراثية المكتوبة لتطرح أسئلتها على من يريد فهمها أو تأويلها. وهذا ما يسميه "غادامير" بانصهار الآفاق **"fusion d'horizon** يقول في هذا الصدد: " **إنّ أفق الحاضر لا يمكن له مطلقا أن يتشكّل بدون الماضي. فكما أنّه لا يمكن أن يوجد أفق للحاضر منعزلاً ومنفصلاً، فإنّه لا توجد كذلك آفاق تاريخية يمكن فتحها "وغزوها". إن الفهم يتحقق بالمقابل في هذا المسار من انصهار هذه الآفاق التي ندعي عزلها وفصلها عن بعضها البعض**"[34]. ففهم الحاضر إذن لا يتحقّق إلاّ انطلاقا من الماضي كاستمرار حيّ له، كما لا يمكن إدراك هذا الأخير إلاّ انطلاقا من موقعنا المخصوص في الحاضر.

لقد حدّد "**غادامير**" بدقة مفهوم **الأفق horizon** وحدّد صلته بمفهوم المقام أو الوضعية situation[35] وأكدّ على فاعليته الإجرائية بالنسبة إلى المؤول في رؤية الأشياء وفهمها. فالمقصود إذن بانصهار الآفاق هو "**إدماج شواغلنا وقضايانا التي يحدَّدها التاريخ في موضوع الفهم، بطريقة يحدّد لنا بمقتضاها هذا الإدماج مضمون ذلك الموضوع**"[36].

ففي هذا الجدل أو الحوار بين الماضي والحاضر تتم عملية الفهم، وبعبارة أخرى فإنّ المعنى الذي يمتلكه نص ما، لا يتحقق فهمه إلاّ عبر عملية انصهار بين أفق المؤول وأفق النص.

لقد نوّه "**بول ريكور**" بأصالة هذا المفهوم وجدّته وأعرب عن ذلك في قوله: "**نحن ندين لجادامير بهذه الفكرة الخصبة والتي مفادها أن التواصل عن بعد بين وعيين يختلفان في موقعهما يتم بفضل**

انصهار أفقيهما، أي بتقاطع قصديهما حول البعيد والمنفتح(...) إن هذا المفهوم –انصهار الآفاق- يعني أننا لسنا نعبش لا في آفاق منغلقة ولا في أفق واحد"[37].

وهكذا تكون الهرمينوطيقا قد ساهمت بقدر كبير في التأكيد على ضرورة الكشف عن المشاركة الحاسمة للذات المؤولة في العملية التأويلية وضرورة أخذها بعين الاعتبار وتحليلها، فتصبح هذه العملية مجالاً وفرصة لمعرفة الذات وبناء ذات أفضل.

إنّ التأكيد على أهمية القارئ في إنتاج المعنى يفتح المجال لتأويلات عديدة تتعلّق بترهين النص ومنحه إمكانات كثيرة للوجود إذا ما كانت القراءة الواحدة تعني إخراج النص من نطاق الكمون (الجمود) إلى الراهنية (إثبات الوجود)، الشيء الذي يجعل النص عبارة عن نواة لدلالات متعددة ترتبط بمقاربات القراء له "**لكن جادامير يذهب أيضا إلى إقامة علاقة عضوية بين أفق الحاضر وآفاق الماضي، وهي علاقة سوف تلعب دوراً في نظرية التلقي**"[38].

ومنه استفاد أصحاب نظرية التلقي كذلك من الفيلسوف "غادامير" في نظرته إلى التأويل وعمل الفهم وإعادة الاعتبار إلى التاريخ في إعادة إنتاج المعنى وبنائه ممّا يعني أنّ "غادامير" يركّز على الذات (القارئ) كقوة فاعلة في عملية الفهم والتأويل، وهذا ما يتّضح جلياً في فهمه للتأريخ (الماضي)، فهو يُخضع تأثيرات الماضي لفهم الذات. وبالتالي "**إننّا حين نفهم عملاً فنيّاً عظيماً نستحضر ما سبق أن جربناه في حياتنا ويتوازن –من ثمّ- فهمنا لأنفسنا. إنّ عملية الجدل في فهم العمل الفني تقوم على أساس من السؤال الذي يطرحه علينا العمل نفسه، السؤال الذي كان سبب وجوده**"[39].

لذا إنّ التاريخ –**فيما يرى غادامير**- ليس وجوداً مستقلاً في الماضي عن وعينا الراهن وأفق تجربتنا الحاضرة. ومن جانب آخر فإنّ حاضرنا الراهن ليس معزولاً عن تأثير التقاليد التي انتقلت إلينا عبر التاريخ. وهو ما جعل "**ياوس**" يتأثّر بهذا الفيلسوف فاستلهم منه "**الأفق التاريخي**" لكنّه عدّل فيه ما يناسب نظريته.

صفوة القول:

ينطلق "**غادامير**" من أسس "هيدجر" الفلسفية التي تقيم الوجود على أساس هيرمنيوطيقي، وتقيم الهيرمنيوطيقا على أساس وجودي، غير أنه أقام تأويله على أساس جدلي، وقد ركّز "غادامير" على معضلة الفهم باعتبارها معضلة وجودية وتحديداً ما يحدث بالفعل في هذه العملية. فهرمنيوطيقة "غادامير" هي محاولة لفهم العلوم الإنسانية على حقيقتها بصرف النظر عن المنهج، ولفهم علاقتها

بتجربتنا الكليّة في العالم. اعتمد غادامير في مفاهيم التأويل على المنظومات المعرفية الأتية: الفهم، الأفق التاريخي، اندماج الأفاق ،اقصاء المؤلف وإثبات الذات (القارئ) .

إن فلسفة التأويل في هرمنيوطيقا غادامير هي عبارة عن فهم الفهم، أي فهم الحقيقة ومعرفتها انطلاقا من تأويلية النص التي تتحكم فيها عدة آليات وتقع في ثلاثة ثلاثة مستويات أساسية، هي مستوى الوعي الجمالي، ومستوى الوعي اللغة، ومستوى الوعي التاريخي، فهذه المستويات تختصر آليات التأويل عنده، ومنه فقد كان لتركيز "غادامير" على الفهم والتأويل دور كبير في توجيه استراتيجيات القراءة والانتقال عبر مستويات التلقي للوصول إلى الرؤية الكلية للنص عبر صيرورته التاريخية.

الإحالات:

[1] HANS GEORG GADAMER, vérité et méthode, les grandes lignes d'une Herméneutique philosophique, éd du seuil, paris 1967, p : 203

[2] Voir, SCHLEIRMACHER, herméneutique, traduit de l'allemand par Christian berner, F.D.E, éd cerf/ pull, 1987, p : 73

[3] Ibid., p : 19

[4] Ibid., p: 97-99

[5] Voir, j.GRONDIN, « herméneutique », les notions philosophiques, op.cit, p :21

[6] W, DILTHEY, le monde de l'esprit, op cit, p : 319

[7] محمد المتقن، "في مفهومي القراءة والتأويل"، مجلة عالم الفكر، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع2، مجلد33 أكتوبر- ديسمبر2004، ص:36

[8] المرجع نفسه، ص.ن

[9] هانس جورج جادامير (HANS GEORG GADAMER) فيلسوف ألماني ولد سنة 1900 بماربورغ Marbourg، درس الفلسفة في مناطق متعددة، تأثر بالفلسفة الفينومينولوجية، درس بعمق الفكر الفلسفي الإغريقي، من أبرز مؤلفاته: الحقيقة والمنهج(1960)، فن الفهم والهرمينوطيقا الفلسفية.

[10] مارتن هايدجر martin HEIDGGER (1889-1972) فيلسوف ألماني، صاحب كتاب "الوجود والزمان" درس على يد **هوسرل رغم الحركة** الفينومينولوجيا.

[11] Voi PAUL RICOEUR, le conflit des interprétation, p : 08r, PAUL RICOEUR, le conflit des interprétations, p : 10

[12] Voir, GEORGIA WARNKE, gadamer herméneutique, op.cit, p: 58

[13] المنهج الظاهري يقوم على أساس ترك الأشياء تتجلى وتظهر دون فرض مقولاتنا عليها، لسنا نحن الذي نشير للأشياء أو ندركها، بل الأشياء تُفصح عن نفسها بنفسها. وبذلك نقول إنّ هذا المنهج يدرس الظواهر من حيث هي "تجارب معيشة"

هذه التجارب لا تقبل الرهان بل الإيضاح والكشف.

[14] نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، ط: 1996 ، ص:42

[15] علي حرب، التأويل والحقيقة، دار التنوير للطباعة والنشر بيروت، ط2: 1995، ص:23

[16] هانس جورج غادامير، فلسفة التأويل (الأصول. المبادئ. الأهداف)، تر محمد شوقي الزين، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، المركز الثقافي العربي، لبنان ط2، 2006، ص:14

[17] H. G.GADAMER, vérité et méthode, op. Cit, p : 10

[18] H. G.GADAMER, vérité et méthode, op. Cit, p : 12

[19] عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، لبنان الجزائر، ط1: 2007، ص:36

[20] H. G.GADAMER, vérité et méthode, op. Cit, p :7-20

[21] GEORGIA WARNKE, gadamer herméneutique, op.cit, p: 22-23

[22] عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، المرجع سابق، ص:22

غادمير هانز جورج،تجلي الجميل ومقالات أخرى، تر سعيد توفيق، القاهرة المجلس الأعلى للثقافة، ط/ 1997، ص: 21[23]

[24] ينظر، هانس جورج غادامير، فلسفة التأويل، (المرجع سابق)، ص:32

[25] H. G.GADAMER, vérité et méthode, op. Cit, p : 56

[26] نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، (المرجع سابق)، ص:41

[27] المرجع نفسه، ص: 42

[28] H. G.GADAMER, vérité et méthode, op. Cit, p : 75

[29] ibid, p : 93

[30] اعتمدنا عبارة "الماقبلية" أيضا لأنها تؤدي الدلالة المقصودة في المصطلح عند "هيدجر" باعتبار أن الفهم يتحقّق عبر تراكمات من الأحكام المسبقة والمعارف والافتراضات الكائنة في التاريخ والتراث وتستدعي ليبني عليها الإنسان عبر محاورتها ومساءلتها فهمه للوجود.

[31] Ibid., p : 93

[32] H. G.GADAMER, vérité et méthode, op. Cit, p : 216

[33] Voir, j.GRONDIN, « herméneutique », les notions philosophiques, op.cit, p : 59

[34] H. G.GADAMER, vérité et méthode, op. Cit, p : 147

[ibid] : 147

[36] Ibid., p : 143-144

[37] GEORGIA WARNKE, gadamer herméneutique, op.Cit, p: 133

[38] عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك، سلسلة عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت1998، ص:325

[39] نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، (المرجع سابق)، ص:40

قائمة المصادر والمراجع:

1. HANS GEORG GADAMER, vérité et méthode, les grandes lignes d'une Herméneutique philosophique, éd du seuil, paris 1967
2. SCHLEIRMACHER, herméneutique, traduit de l'allemand par Christian berner, F.D.E, éd cerf/ pull, 1987

3. j.GRONDIN, « herméneutique », les notion philosophiques, P.U.F, 1995, tome
4. PAUL RICOEUR, le conflit des interprétation, p : 08r, PAUL RICOEUR, le conflit des interprétations
5. Paul RICOEUR, du texte a l'action, éd, seuil, paris 1986
6. محمد المتقن، "في مفهومي القراءة والتأويل"، مجلة عالم الفكر، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع2، مجلد33 أكتوبر- ديسمبر2004
7. علي حرب، التأويل والحقيقة، دار التنوير للطباعة والنشر بيروت، ط2: 1995،
8. عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، لبنان الجزائر، ط1: 2007
9. هانس جورج غادامير، فلسفة التأويل (الأصول. المبادئ. الأهداف)، تر محمد شوقي الزين، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، المركز الثقافي العربي، لبنان ط2، 2006
10. غادمير هانز جورج،تجلي الجميل ومقالات أخرى، تر سعيد توفيق، القاهرة المجلس الأعلى للثقافة، ط/ 1997،
11. عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك، سلسلة عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت1998
12. نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، ط: 1996